

الفصل الثالث

(الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة)

للملا صدرا

توفي (٩٧٩هـ / ١٥٧١م)

زكي الميلاد

باحث ومفكر إسلامي، رئيس تحرير مجلة الكلمة، السعودية

almilad@almilad.org

أولاً: تعريف الكتاب.. بياناته وموضوعاته

الثانية، التي احتوت على ترجمة لحياة المؤلف كتبها الشيخ محمد رضا المظفر (١٣٢٢-١٣٨٣هـ)، أحد أبرز رواد الإصلاح والتجديد في المؤسسة الدينية بمدينة النجف العراقية، وجاءت هذه الترجمة في (٢٢) صفحة، وإلى هذه الترجمة رجع كثير من الذين كتبوا عن سيرة الملا صدرا وفكره وفلسفته. واحتوت هذه الطبعة على مقدمة للناشرين كتبها رضا لطفي، جاءت في أربع صفحات، واحتوت كذلك على فهرس لأسماء الكتب، وفهرس للأعلام، وفهرس تفصيلي للمحتويات في كل مجلد من المجلدات التسعة.

وقد تقصّد المؤلف أن يرتب كتابه بطريقة يتطابق فيها ومنهج سلوك العرفاء والأولياء، ليكون هذا الكتاب دالاً ودليلاً في السير على منهج هؤلاء. وهذه الأسفار كما حددها في خاتمة مقدمته للكتاب، هي كالتالي: السفر الأول: سفر من الخلق إلى الحق. والسفر الثاني: سفر بالحق إلى الحق. والسفر الثالث: سفر من الحق إلى الخلق بالحق. السفر الرابع: سفر بالحق في الخلق.

وحين يشرح الشيخ مرتضى المظهري هذه الأسفار الأربعة، في نظر العرفاء وأهل السلوك، يقول: "يرى العرفاء أن للسالك في مسيرته العرفانية أربعة أسفار: السير من الخلق إلى الحق، ويسعى فيه السالك إلى تجاوز الطبيعة، وبعض عوالم ما بعد الطبيعة، ليصل إلى ذات الحق تعالى، فلا يكون

صدر كتاب (الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة)، أول مرة سنة ١٢٨٢هـ/١٨٦٥م في إيران، في طبعة حجرية، جاءت في أربعة مجلدات كبار، تقع في (٩٢٦) صفحة، وتضمنت تعليقة للملا هادي السبزواري (١٢١٢-١٢٩٧هـ/١٨٨٠م)، أحد أبرز أتباع مدرسة الملا صدرا، على ثلاث مجلدات فقط. وكان أول كتاب يطبع للملا صدرا من بين جميع مؤلفاته الأخرى التي فاقت أربعين كتاباً ورسالة.

وصدر هذا الكتاب في طبعة حديثة سنة ١٣٧٨هـ، جاءت في تسعة مجلدات من القياس العادي، واحتوت على تعليقات متفرقة لستة من العلماء وأساتذة الفلسفة المعروفين، والمصنفين على مدرسة الملا صدرا، وهم حسب ترتيب تواريخ وفياتهم:

علي بن جمشيد النوري الأصفهاني (توفي ١٢٤٦هـ)

إسماعيل بن سميع الأصفهاني (توفي ١٢٧٧هـ)

الملا هادي بن مهدي السبزواري المتوفى سنة ١٢٩٧هـ/١٨٨٠م، وعلى رواية أخرى سنة ١٢٩٥هـ/١٨٧٨م.

السيد علي بن عبد الله الزنوزي التبريزي (١٣١٠هـ)

محمد بن معصوم علي الهيدجي الزنجاني (توفي ١٣٤٩هـ)

السيد محمد حسين الطباطبائي (توفي ١٤٠٢هـ)

والنسخة المتداولة اليوم من هذا الكتاب هي الطبعة

كان وزيراً في دولة فارس، ومن عائلة محترمة هي عائلة قوامي، ولم يكن له ولد ذكر، فنذر أن ينفق مالا كثيراً على الفقراء وأهل العلم، إذا رزق ولداً ذكراً صالحاً، فتحققت أمنيته في ولده الذي سماه محمداً، فكان وحيد والديه، وعاش حياة كريمة، ووجهه والده منذ وقت مبكر لطلب العلم^(٤) وقد قسم الدارسون السيرة الفكرية والعلمية للملا صدرا إلى مراحل، وهناك من قسم هذه المراحل إلى ثلاث مثل الشيخ المظفر، وتابعه في هذا التقسيم الشيخ عبد الله نعمة في كتابه: (فلاسفة الشيعة حياتهم وآراؤهم). وهناك من قسمها إلى مرحلتين مثل السيد كمال الحيدري في كتابه: (مناهج المعرفة)، والدكتور زينب شوربا في كتابها: (الحركة الجوهرية ومفهوم التصور والتصديق عند صدر الدين الشيرازي).

وسنعمد تقسيم الشيخ المظفر، مع بعض التعديل، بوصفه الأكثر استيعاباً وإحاطة بالمراحل والأطوار التي مر بها الملا صدرا في مسيرته العلمية، وهو التقسيم الذي شكل مرجعاً حتى عند الذين قالوا بثنائية المراحل، وجاء مضمناً فيها أيضاً.

وهذه المراحل الثلاث، هي:

المرحلة الأولى: التلمذة والتحصيل العلمي

يؤرخ لهذه المرحلة مع بداية انتقال الملا صدرا إلى أصفهان، بعد وفاة والده في شيراز، وخلال هذه المرحلة عرف عنه انكبابه في تحصيل العلوم والمعارف العقلية والفلسفية، وكان من أبرز وأشهر أساتذته في هذه المرحلة، اثنان هما الشيخ محمد بن الحسين بن عبد الصمد المعروف بالشيخ البهائي (٩٥٣-١٠٣٠هـ)، والسيد محمد باقر الداماد (٩٦٩-١٠٤١هـ).

وقد أشار الملا صدرا إلى هذه المرحلة، في مقدمة كتابه (الحكمة المتعالية)، شارحاً واقع حاله في تحصيل العلوم والمعارف بقوله: "ثم إني قد صرفت قوتي في سالف الزمان منذ أول الحداثة والريعان في الفلسفة الإلهية، بمقدار ما أوتيت من المقدور، وبلغ إليهِ قسطني من السعي الموفور، واقتفيت آثار الحكماء السابقين والفضلاء اللاحقين، مقتبساً من نتائج خواطرهم وأنظارهم، مستفيداً من

بينهما حجاب. والسير بالحق في الحق، فبعد أن يعرف السالك ذات الحق عن كتب، يشرع بعون الحق في السفر والتجول في الشؤون والكمالات والأسماء والصفات. السير من الحق إلى الخلق بالحق، وفيه يعود السالك إلى الخلق، فيمكث بينهم، إلا أن عودته لا تعني انقطاعه وانفصاله عن ذات الحق، لأنه يرى ذات الحق مع جميع الأشياء وفيها. السير في الخلق بالحق، وفيه يقوم السالك بإرشاد الناس، وهدايتهم ومساعدتهم في الوصول إلى الحق"^(١).

أما الموضوعات والمسائل التي بحثها وعالجها المؤلف في هذا الكتاب، فهي على النحو التالي:

السفر الأول: وجاء في ثلاثة أجزاء من الطبعة الحديثة، وناقش فيه الأمور العامة، أو العلم الإلهي بالمعنى الأعم، وبحث طبيعة الوجود وعوارضه الذاتية، وقسم الحديث عنه في عشرة مراحل ناقشها بتفصيل شديد.

السفر الثاني: وجاء في جزأين، وناقش فيه علم الطبيعيات، وخصص الجزء الأول لمباحث الأعراض، والجزء الثاني لمباحث الجواهر، وفصل الحديث عن مباحث الأعراض في أربعة فنون حسب تسميته، ومباحث الجواهر في ستة فنون.

السفر الثالث: وجاء في جزأين، ناقش فيه العلم الإلهي، وفصل الحديث عنه في عشرة مواقف حسب تسميته كذلك. السفر الرابع: وجاء في جزأين، ناقش فيه علم النفس، وفصل الحديث عنه في أحد عشر باباً.

ثانياً: الكاتب . . سيرته ومؤلفاته

مؤلف كتاب (الحكمة المتعالية) هو محمد بن إبراهيم ابن يحيى الشيرازي القوامي، المشهور كما يقول الشيخ محمد رضا المظفر على لسان الناس بالملا صدرا، وعلى لسان تلامذة مدرسته بصدر المتأخرين.^(٢) ومعظم كتب السير والتراجم والأعلام لم تتحقق من تاريخ ولادة الملا صدرا، إلا أن المحقق الإيراني جلال الدين الأشتياني ظفر بتاريخ ولادته سنة ٩٧٩هـ،^(٣) في كتاب له عن حياة الملا صدرا باللغة الفارسية.

وموطن ولادته مدينة شيراز عاصمة دولة فارس آنذاك، وذكر الشيخ المظفر أن والده إبراهيم بن يحيى القوامي

العقلية، وهو موقف المناوئين للفلسفة، ولنهج الملا صدرا ومسلكه الفلسفي.

الموقف الثاني: حاول أصحابه تقديم تأويل لا يتنافى مع الفلسفة، وشرح هذا الموقف السيد كمال الحيدري، بقوله: إن "هذا النص لا يكشف عن ذم العلوم العقلية والآراء الفلسفية بنحو الإطلاق، وإنما يقتصر على ذم آراء المتفلسفة والمجادلين من أهل الكلام، فهو قد بين أن الذي استغفر منه هو سنخ خاص من العلوم البحثية، بقرينة ما ذكره بعده بقليل، فقد قال إن قياسهم عقيم وصراطهم غير مستقيم".^(٨)

المرحلة الثانية: العزلة والانقطاع إلى العبادة

بدأت هذه المرحلة حين قرر الملا صدرا عزلة الناس، والتوقف عن الدرس والتدريس، والابتعاد عن أجواء العلماء والوسط الديني، والتفرغ كلياً للعبادة ومجاهدة النفس. وكتب السير والتراجم والأعلام لم تذكر تاريخاً محدداً لبداية هذه المرحلة، لكنها أشارت إلى أنها امتدت ما يقارب خمسة عشر عاماً، وكانت في قرية تابعة لمدينة قم اسمها كهك.

وتعد هذه المرحلة من أكثر المراحل أهمية وحساسية في تاريخ الملا صدرا ومسلكه الديني والفلسفي، وهي المرحلة التي لفتت انتباه الدارسين والباحثين الذين توقفوا عندها باهتمام كبير، لأنها غيرت، بصورة صارمة، وجهة الملا صدرا الدينية والفلسفية.

ووجد بعض الدارسين أن هذه المرحلة تذكر بسيرة الشيخ أبي حامد الغزالي الذي عرف العزلة في مرحلة حساسة للغاية من مراحل حياته، وخرج منها بتبني مسلك ديني وفكري مغاير لما كان عليه من قبل، ويلتقي في هذا المسلك مع الملا صدرا من جهة التركيز على الرياضة المعنوية ومجاهدة النفس.

وأشار إلى هذه الملاحظة الشيخ عبد الله نعمة في كتابه: (فلاسفة الشيعة حياتهم وآراؤهم)، وكان يفترض لمثل هذه الملاحظة، أن تفتح نقاشاً فكرياً وفلسفياً معمقاً على أساس المقارنة والمقاربة بين هذين الرجلين وتجربتهما الدينية والفكرية.

أبكار ضمائرهم وأسرارهم، وحصلت ما وجدته في كتب اليونانيين والرؤساء المعلمين، تحصيلاً يختار اللباب عن كل باب، ويحتاج عن التطويل والإطناب".^(٩)

ونقل السيد كمال الحيدري رأياً لأحد الدارسين المعاصرين لم يسمه، يقسم فيه هذه المرحلة العلمية في حياة الملا صدرا إلى مرحلتين، هما:

- درس الفلسفات والآراء الدينية والعرفانية درساً متعمقاً متجنباً عن الانحياز إلى رأي خاص أو فلسفة خاصة من دون أن يسانده البرهان، واكتشف في دراساته أصول المذاهب والآراء والفلسفات، وطرقها الإثباتية وفهم صلاتها ومميزاتها، وعلم بمقدار كبير جهات كمالها ونقصها، فاطلع بذلك على الفلسفات والآراء والمعارف في تطورها الإغريقي والفارسي والإسلامي.

- درس المذاهب الكلامية درساً متمادياً في الأطراف، واجتئى منها ما أثمرت من التفسيرات العقلية والدينية، ولم يحذفها كلها بمجرد أن أدلتها أدلة جدلية غير منساقة مع الطرق المنطقية، بل حذف منها جدلها وإجاباتها الباطلة، وأخذ منها ما تلاءمت مع الأصول المنطقية.^(١٠)

ومن النصوص التي توقف عندها الدارسون باهتمام شديد خلال هذه المرحلة، النص الذي أظهر فيه الملا صدرا ندمه واستغفاره على شطر من عمره، وأشار إليه في مقدمة كتابه الأسفار، بقوله: "إني لأستغفر الله كثيراً مما ضيعت شطراً من عمري في تتبع آراء المتفلسفة والمجادلين من أهل الكلام، حتى تبين لي آخر الأمر بنور الإيمان، وتأييد الله المنان أن قياسهم عقيم، وصراطهم غير مستقيم، فألقينا زمام أمرنا إليه، وإلى رسوله النذير المنذر، فكل ما بلغنا منه آمنا به وصدقناه، ولم نخجل أن نخجل له وجهاً عقلياً ومسلماً بحيثاً، بل اقتدينا بهداه، وانتهينا بنهيه، امثالاً لقوله تعالى: (ما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) حتى فتح الله عليّ قلبي ما فتح، فأفلح ببركة متابعتي وأنجح".^(١١)

وأمام هذا النص، هناك موقفان أشار لهما الدارسون والباحثون:

الموقف الأول: اتخذ أصحاب هذا الموقف من هذا النص حجة ومستمسكاً في رفض الفلسفة، وذم العلوم

والحدثان، وشيئاً من أحكام المعاد لنفوس الإنسان - فارغة عن علوم الحقيقة وحقائق العيان، مما لا يدرك إلا بالذوق والوجدان، وهي الواردة في الكتاب والسنة من معرفة الله وصفاته وأسمائه وكتبه ورسله، ومعرفة النفس وأحوالها من القبر والبعث والحساب والميزان والصراط والجنة والنار وغير ذلك، مما لا تعلم حقيقته إلا بتعليم الله".^(١٠)

وعن الوسط الديني والعلمي، كتب يقول: "فلما رأيت الحال على هذا المنوال من خلو الديار عن يعرف قدر الأسرار وعلوم الأحرار، وأنه قد اندرس العلم وأسراره، وانطمس الحق وأنواره، وضاعت السير العادلة، وشاعت الآراء الباطلة، ولقد أصبحت عين الحيوان غائرة، وظلت تجارة أهلها باثرة، وآبت وجوههم بعد نضارتها باسرة، وآلت حال صفقتهم خائبة خاسرة، ضربت عن أبناء الزمان صفحاً، وطويت عنهم كشحاً، فألجأني خمود الفطنة، وجود الطبيعة لمعاداة الزمان، وعدم مساعدة الدوران، إلى أن انزويت في بعض نواحي الديار، واستترت بالخموم والانكسار، منقطع الآمال، منكسر البال، متوفرأ على فرض أوديه، وتفرط في جنب الله أسعى في تلافيه، لا على درس ألقيه، أو تأليف أتصرف فيه، إذ التصرف في العلوم والصناعات وإفادة المباحث ودفع المضاعفات، وتبيين المقاصد ورفع المشكلات، مما يحتاج إلى تصفية الفكر، وتهذيب الخيال عما يوجب الملل والاختلال، واستقامة الأوضاع والأحوال مع فراغ البال. ومن أين يحصل للإنسان مع هذه المكاه التي يسمع ويرى من أهل الزمان، ويشاهد مما يكب عليه الناس في هذا الأوان، من قلة الإنصاف وكثرة الاعتساف وخفض الأعالي والأفاضل، ورفع الأداني والأراذل، وظهور الجاهل الشرير، والعامي النكير على صورة العالم التحرير، وهياة الحبر الخبير، إلى غير ذلك من القبائح والمفاسد الفاشية اللازمة، والمتعدية بحال المخاطبة في المقال، وتقرير الجواب عن السؤال، فضلاً عن حل المضاعفات وتبيين المشكلات".^(١١)

المرحلة الثالثة: العودة إلى المجتمع واستعادة الدور العلمي حدد الشيخ المظفر لهذه المرحلة عنوان دور التأليف، باعتبار أن جميع مؤلفات الملا صدرا الكثيرة والغزيرة، باستثناء رسالة أو رسالتين، ظهرت في هذه المرحلة، وتميزت بها. مع

ومن الممكن أن تكون هناك أقوال متعددة في تفسير اختيار الملا صدرا للعزلة في هذه المرحلة، ومن بين هذه الأقوال يمكن الإشارة إلى قولين يصنفان على مدرسة الملا صدرا، وهما:

- ما يتصل بعامل موضوعي وخارجي له علاقة بما تعرض له الملا صدرا من نقد وهجوم، وما حصل له من مضايقات وإشكاليات من الوسط الديني، ومن الوسط الاجتماعي، وصل إلى حد تكفيره، لأنه كان يشهر أقواله، ويعلن عنها بوضوح وصراحة، وكان يقول بوحدة الوجود، وشرح هذا القول في رسالة له يعتقد أنها كتبت قبل كتاب (الحكمة المتعالية)، وكانت بعنوان "طرح الكونين"، وهو القول الذي تراجع عنه فيما بعد. وبسبب هذا الوضع الديني والاجتماعي تضرر الملا صدرا كثيراً، ودفع به لاختيار موقف العزلة عن الناس والتفرغ للعبادة، وأشار إلى هذا القول الشيخ المظفر في ترجمته حياة الملا صدرا.

- ما يتصل بعامل علمي وذاتي، له علاقة برؤية الملا صدرا إلى العلوم والمعارف التي درسها وتعلمها وتعاطى معها، وأشار إلى هذا القول السيد كمال الحيدري، وشرحه بقوله: "بعد نهاية المرحلة الأولى من حياته التي صار فيها الملا صدرا أستاذاً كاملاً في العلوم الرسمية والكسبية، أدرك أن هذه لا تشفي الغليل، وأن هناك مرحلة أخرى لا بد من طيها والوصول إليها".^(١٢)

وعند النظر في هذين القولين، يمكن القول إن الصواب هو الجمع بينهما، فالقول الأول عزز عند الملا صدرا حاجة المجتمع الديني إلى التهذيب النفسي والروحي، والقول الثاني عزز عنده حاجته هو إلى مجاهدة النفس.

وأشار الملا صدرا إلى نصوص واضحة شرح فيها رؤيته لذاته من جهة، ورؤيته إلى الوسط الديني والعلمي من جهة أخرى. فتجاه ذاته كتب يقول: "وإني كنت سالفاً كثير الاشتغال بالبحث والتكرار، وشديد المراجعة إلى مطالعة كتب الحكماء النظار حتى ظننت أنني على شيء. فلما انفتحت بصيرتي ونظرت إلى حالي، رأيت نفسي - وإن حصلت شيئاً من أحوال المبدأ وتنزيهه عن صفات الإمكان

بين أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر الهجريين، ومن ثم صدرت ثانياً في طبعات حديثة. ونالت هذه المؤلفات درجة عالية من الاهتمام، تقديراً لمكانة ومنزلة الملا صدرا الدينية والفلسفية، وصدر معظمها في طبعات محققة أنجزها باحثون ومحققون إيرانيون متخصصون في الدراسات الفلسفية، مثل المحقق جلال الدين الأشتياني، وحسين نصر، والسيد مصطفى محمد محقق داما، وآخرون.

وسوف نعتمد في توثيق هذه المؤلفات، على ما أورده الشيخ المظفر في ترجمة حياة الملا صدرا؛ إذ احتوت على تفصيلات وتوضيحات مهمة، رجع إليها كثير من الباحثين في سيرة الملا صدرا.

ولن نذكر جميع هذه المؤلفات لكثرتها، ولإمكانية الوصول إلى المصادر والمراجع التي أشارت إليها، وسنعني بالمؤلفات التي عرف تاريخ طباعتها، إلى جانب أبرز مؤلفاته الأخرى. وسنشير أولاً إلى المؤلفات التي عرف تاريخها، وسوف نرتبها بحسب تاريخ طباعتها أول مرة، وجميعها كانت في طبعات حجرية. وهذه المؤلفات هي:

- الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية الأربعة، طبع سنة ١٢٨٢هـ.

- الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية. طبع سنة ١٢٨٦هـ، يقع في ٢٦٤ من القطع الوسط. وبشأن هذا الكتاب يقول الشيخ المظفر أنه عرف عند أساتذة الفن أنه آخر مؤلفات الملا صدرا.^(١٤)

- رسالة الحدود. طبعت سنة ١٣٠٢هـ، تقع في ١٠٩ صفحات من القطع الوسط.

- شرح إلهيات الشفاء. طبع سنة ١٣٠٣هـ، يقع في ٢٦٤ من القطع الكبير، مع إلهيات الشفاء لابن سينا في مجلد واحد، وهو شرح غير كامل انتهى فيه إلى شرح نهاية المقالة السادسة.

- رسالة التصور والتصديق. طبعت سنة ١٣١١هـ، تقع في ٣٠ صفحة من القطع الوسط، ملحقة بكتاب (الجوهر النضيد) كتاب في المنطق للعلامة الحسن بن المظفر الحلي.

ذلك فإن دور الملا صدرا في هذه المرحلة كان أوسع وأشمل من دور التأليف، فقد عاد إلى المجتمع بعد أن فك العزلة عن نفسه التي دامت خمسة عشر عاماً، واستعاد دوره العلمي ليس على مستوى التأليف فحسب، وإنما على مستوى التدريس.

وبدأت هذه المرحلة، بعد أن شعر الملا صدرا بتحقيق ما كان يصبو إليه من مجاهدة ورياضة معنوية وقلبية، وشرح واقع حاله في هذه المرحلة، بقوله: "اشتعلت نفسي لطول المجاهدات، اشتعالاً نورياً، والتهب قلبي لكثرة الرياضات التهاباً قوياً، ففاضت عليها أنوار الملكوت، وحلت بها خبايا الجبروت، ولحقها الأضواء الأحدية، وتداركتها الألفاظ الإلهية، فاطلعت على أسرار لم أكن أطلع عليها إلى الآن، وانكشفت لي رموز لم تكن منكشفة هذا الانكشاف من البرهان، بل كل ما علمته من قبل بالبرهان عاينته مع زوائد بالشهود والعيان، من الأسرار الإلهية، والحقائق الربانية، والودائع اللاهوتية، والخبيايا الصمدانية".^(١٢)

وبعد أن استعاد الملا صدرا دوره ونشاطه في هذه المرحلة، وعرفت مؤلفاته، وذاعت شهرته بوصفه أستاذاً للمعارف والعلوم الإلهية والعقلية، أخذ حاكم فارس آنذاك وردى خان التقرب منه، وفي هذا الشأن يذكر المستشرق الفرنسي هنري كوربان، أن وردى خان استدعى الملا صدرا للتدريس في مدرسة شيراز، التي كان قد بناها بعد أن أخذ موافقة الشاه عباس الأول، فلبى الشيرازي الدعوة، وعاد للتعليم في مسقط رأسه، بعد وفاة الشاه عباس، وكان ذلك عام ١٠٢٢هـ، وبعد عودة الشيرازي إلى مدينته تحولت شيراز إلى مركز من أهم المراكز الثقافية والعلمية في إيران، وفي تلك المدينة كان الشيرازي مستغرقاً في التعليم، وإعداد الطلبة وتوجيههم، وفي تأليف الكتب والرسائل، وقد تم ذلك كله في غرفة وضيقة لا تزال تمكن مشاهدتها في تلك المدرسة المعروفة اليوم باسم مدرسة خان.^(١٣)

ثالثاً: الملا صدرا؛ كُتبه ورسائله

عرف الملا صدرا بغزارة إنتاجه التأليفية، وعرفت جميع مؤلفاته تقريباً التي تفوق أربعين كتاباً ورسالة، وحفظت، وطبع أكثرها في طبعات حجرية أولاً، ما

الفلسفة قدمها وحديثها. وعده السيد كمال الحيدري بأنه "أجل وأعظم كتب الفلسفة، ولولا خوف المغالاة لقلنا إنه أعظم كتاب فلسفي أنتجه إلى زماننا ذهن بشري غير معصوم".^(١٥)

ويمثل هذا الكتاب عمدة مؤلفات الملا صدرا، وأشهرها على الإطلاق، وتلتقي عنده وتتقاطع جميع مؤلفاته الأخرى، وبعبارة أخرى هو الأصل الذي تنفرع عنه جميع مؤلفاته الأخرى، وهو أول ما خرج به بعد عزلته، ويحتوي على زبدة أفكاره، وجوهر فلسفته.

وبفضل هذا الكتاب، اكتسب الملا صدرا تبيجلاً وتعظيماً من المتأثرين به، والمنتمين لمدرسته من المعاصرين، ما لم ينله فيلسوف آخر منذ القرن الحادي عشر الهجري إلى اليوم، وأطلقوا عليه من الأوصاف التي لا تخلو من المبالغة والإسراف، تقديرًا لمكانته، وتبجيلاً لشخصه، وتعظيمًا لفلسفته. فهو عند الشيخ المظفر من عظماء الفلسفة الإلهيين الذين لا يوجد بهم الزمن إلا في فترات متباعدة من القرون، والمدرس الأول للمدرسة الفلسفية الإلهية في هذه القرون الثلاثة الأخيرة في البلاد الإسلامية الإمامية، والوارث الأخير للفلسفة اليونانية والإسلامية، والشارح لهما، والكاشف عن أسرارهما. ويرفعه الشيخ المظفر إلى منزلة الفارابي وابن سينا ونصير الدين الطوسي، ويعده خاتمهم، والشارح لأرائهم، والمروّج لطريقتهم، والأستاذ الأكبر لفنهم، ويتمم الشيخ المظفر كلامه بالقول: ولولا خوف المغالاة لقلت هو الأول في الرتبة العلمية، وبخاصة في المكاشفة والعرفان.^(١٦)

ويرى الباحث الإيراني المتخصص في الفلسفة والدراسات الفلسفية غلام حسين ديناني أن "دراسة القضايا الفلسفية في حركة التاريخ، تكشف بوضوح عن عدم ظهور فيلسوف بعظمة ملا صدرا وأهميته في العالم الإسلامي، بعد وفاة ابن سينا في القرن الخامس الهجري، ومقتل السهروردي في القرن السادس الهجري".^(١٧)

وفي نظر هؤلاء أن الملا صدرا ابتكر فلسفة جديدة، ومتفوقة على غيرها من الفلسفات السابقة عليها، وأنهم وجدوا ضالّتهم في هذه الفلسفة التي انتموا إليها، ودافعوا عنها، ورفعوا من شأنها، وبالغوا في تعظيمها والثناء عليها،

- وفي هذه الرسالة عملت الدكتور زينب إبراهيم شوريا دراسة تحليلية وتحقيقية صدرت في كتاب بعنوان: (الحركة الجوهرية ومفهوم التصور والتصديق عند صدر الدين الشيرازي)، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠٤م، ١٦٥ صفحة، من القياس العادي.

- شرح الهداية الأثرية. طبع سنة ١٣١٣هـ، يقع في ٣٩٧ من القطع الوسط. وكتاب الهداية من تأليف أثير الدين مفضل الأهري، من علماء القرن السابع الهجري.

- المبدأ والمعاد. طبع سنة ١٣١٤هـ، يقع في ٣٧٠ صفحة من القطع الوسط.

- المشاعر. طبع سنة ١٣١٥هـ، يقع في ١٠٨ صفحات من القطع الصغير، مع تعليقات وحواشٍ لبعض أساتذة الفلسفة.

- الحكمة العرشية. طبع سنة ١٣١٥هـ، يقع في ٩٦ صفحة من القطع الصغير، طبع مع كتاب المشاعر في مجلد واحد.

- حاشية على شرح حكمة الإشراق للسهروردي، طبع سنة ١٣١٦هـ.

- تفسير القرآن الكريم. طبع سنة ١٣٢١ أو ١٣٢٢هـ، يقع في ٦١٦ صفحة من القطع الكبير، ويشتمل على تفسير جملة من السور والآيات.

- أسرار الآيات وأنوار البينات. طبع سنة ١٣٩١هـ، يقع في ٩٢ صفحة من القطع الكبير.

- شرح أصول الكافي للكليني، انتهى فيه إلى الحديث رقم ٤٩٩. - مفاتيح الغيب.

وثمة مؤلفات أخرى.

رابعاً: الملا صدرا؛ فلسفته وتفوقه الفلسفي

يعد كتاب (الحكمة المتعالية)، أحد أكثر الكتب تأثيراً في تاريخ تطور الفلسفة والفكر الفلسفي في إيران، ونال من التبجيل والتعظيم عند المتأثرين به من المعاصرين، ما لم ينله كتاب آخر في مجاله، وتحذوا عنه بطريقة تلفت الانتباه بشدة، كما لو أنهم يتحدثون عن كتاب هو من صنع غير البشر، مع تأكيد بعضهم من خشية المغالاة، فقد وصفه الشيخ المظفر بالكتاب العظيم، وعده القمة في كتب

والانتصار لها.

الاحتمال الأول: إن هذه التسمية مرادفة للحكمة

العليا في مقابل الرياضيات والطبيعات، وبناءً على هذا المفهوم تكون الحكمة المتعالية هي الفلسفة الأولى بنحو مطلق.

الاحتمال الثاني: إن الحكمة المتعالية هي مذهب الملا

صدرا الخاص في الفلسفة الأولى، وهذا ما تحكي عنه القرائن الموجودة في كلماته.^(٢١)

وينبئ الشيخ المطهري إلى أن الملا صدرا لم يكن أول من انتخب هذه التسمية، وحسب معرفته فإن ابن سينا هو أول من استعملها في أواخر كتابه «الإشارات والتنبيهات». وتحددت فلسفة الملا صدرا عند أصحاب هذه الفلسفة، في أنها استوعبت ودجت لأول مرة الفلسفات الكبرى التي عرفت في تاريخ الفلسفة الإسلامية، وهي المشائية والإشراقية والعرفان والكلام، وجمعت بين العقل والكشف والشرع، بطريقة لم تحصل من قبل بهذه الكيفية المبتكرة.

فقد أوجد الملا صدرا كما يقول الشيخ المطهري: "مسلكاً فلسفياً استطاع من خلاله أن يحل الاختلاف بين المشائين والإشراقيين؛ إذ لم يتقيد بما ذهب إليه المشاؤون أو الإشراقيون؛ وإنما وافق هؤلاء في بعض المسائل، فيما وافق أولئك في مسائل غيرها، كذلك استطاع أن يحل الاختلاف بين الفلسفة والعرفان في موارد كثيرة، واتضح كثير من وجوه الحقائق الإسلامية، من دون الاعتماد على الأساليب الكلامية المتعارفة. وعلى هذا الأساس تعتبر فلسفة صدر المتألهين، بمثابة ملتقى لطرق أربعة، وهي: المشاؤون، الإشراقيون، العرفانيون، المتكلمون."^(٢٢)

ويضيف الشيخ المطهري أن هذه الفلسفة حسمت نهائياً أكثر الخلافات، سواء الواقعة بين المشائين والإشراقيين، أو الفلاسفة والعرفاء، أو الفلاسفة والمتكلمين.^(٢٣)

وهذا ما أوضحه الملا صدرا نفسه حين شرح ما يريد النهوض به، في أن يصنف كما يقول: "كتاباً جامعاً لشتات ما وجدته في كتب الأقدمين، مشتملاً على خلاصة أقوال المشائين، ونقاوة أذواق أهل الإشراق من الحكماء الرواقيين، مع زوائد لم توجد في كتب أهل الفن من حكماء الأعصار،

وفي هذا الشأن، يرى الشيخ مرتضى المطهري أن فلسفة الملا صدرا جاءت بنظام فلسفي خاص، لا يتوفر لدئي من سبقه، وأن روح الابتكار بارزة فيها، وكانت متسقة في نظره، لا تفوقها غيرها من المنظومات الفلسفية، كفلسفة ابن سينا، وفلسفة السهروردي، إن لم تكن أكثر اتساقاً منها.^(٢٤)

وفي مكان آخر يقول المطهري "من المعلوم أن صدر المتألهين تميز بتقديم رؤية كونية فلسفية لا نظير لها، بين ما قدمه الفلاسفة والمفكرون في العالم الإسلامي، وبحدود ما اطلعت عليه من فلسفة الغرب والشرق، فإن لهذه الفلسفة عمقاً خاصاً، سيتضح مداه للغرب فيما بعد."^(٢٥) واستناداً لهذا الموقف فإن الفلاسفة الإيرانيين، إلى جانب آخرين من فلاسفة الإمامية المعاصرين، كانوا الأكثر نقداً وتشكيكاً لوجهة النظر التي كانت تقول إن ابن رشد كان آخر الفلاسفة المسلمين، ومن بعده توقفت الفلسفة وانتهى عصرها في العالم الإسلامي، في حين يرى هؤلاء أن وجهة النظر هذه إذا صحت فإنها تعني توقف الفلسفة وانتهاء عصرها في غرب العالم الإسلامي، وانبعاثها وتجديدها في شرقي العالم الإسلامي، وبالتالي فإن ابن رشد لم يكن آخر الفلاسفة المسلمين.

وأصحاب هذا الرأي يرون كذلك، أن فلسفة الملا صدرا تسمو وتتفوق على فلسفة ابن رشد، وهم واثقون جداً بهذا الرأي، إلى درجة أن الشيخ المطهري يرى أنه من الخطأ -حسب قوله- اعتبار ابن رشد فيلسوفاً كبيراً، وأن عيبه الأساسي في نظره هو تعصبه الشديد لأرسطو، واعتبار مخالفات ابن سينا له ذنباً لا يغتفر. ويضيف المطهري: وأما شهرته الواسعة بوصفه من فلاسفة الإسلام الكبار، فتعود في رأيه إلى الغرب، حين ترجم الغربيون مؤلفاته إلى اللغات الأوروبية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.^(٢٦)

وعرفت فلسفة الملا صدرا بفلسفة الحكمة المتعالية، وهذا ما أراده الملا صدرا نفسه حين اختار هذه التسمية لكتابه الأسفار، وهناك احتمالان في نظر الشيخ المطهري لهذه التسمية، وهما:

الخلاصة:

يُعد الملا صدرا من بين أبرز الفلاسفة المسلمين في إيران في العصور المتأخرة، ويرفعه كثير من الدارسين إلى منزلة الفارابي، وابن سينا، والسهورودي، ونصير الدين الطوسي، وهو خاتمتهم والشارح لآرائهم والمروج لطريقتهم، بل ويقدم في كتاب الحكمة المتعالية، ومؤلفاته الأخرى، رؤية فلسفية لا نظير لها، ودمج لأول مرة الفلسفات المشائية والإشراقية والعرفانية والكلام، وجمعت بين العقل والكشف والشرع، وإن صحت مقولة ابن رشد عن نهاية عصر الفلسفة في المغرب الإسلامي، فشخصية الملا صدرا وآراؤه الفلسفية، فتحت الباب لإحياء الفلسفة الإسلامية في إيران والمشرق الإسلامي.

وفرائد لم يجد بها طبع أحد من علماء الأدوار. (٢٤) وهكذا حين شرح ما قام به في كتابه (الحكمة المتعالية) حيث اندمجت فيه حسب قوله "العلوم التأهيلية في الحكمة البحثية، وتدرعت فيه الحقائق الكشفية بالبيانات التعليمية، وتسربت الأسرار الربانية بالعبادات المأنوسة للطباع. (٢٥)

وأشار إليها كذلك في كتابه (المبدأ والمعاد) مرجحاً لطريقته بقوله: "فأولئ أن يرجع إلى طريقتنا في المعارف والعلوم الحاصلة لنا بالمازجة بين طريقة التأملين من الحكماء والمليين من العرفاء. (٢٦)

وأكثر ما حاول الشيخ المطهري الدفاع عنه أمام منتقدي هذه الفلسفة، هو التأكيد على أنها ليست فلسفة تجميعية، وإنما هي فلسفة لها بناؤها الفلسفي المشخص، وينبغي عدها نظاماً فكرياً مستقلاً برغم تأثرها في بلورتها ووجودها بالمدارس الفلسفية الإسلامية الأخرى. (٢٧)

وفي مقابل هذه الفلسفة ظهرت اتجاهات مناوئة لها بشدة، وفي أزمنة متعاقبة، لم تتوقف إلى اليوم، مع ذلك فقد تمكنت هذه الفلسفة من الثبات والبقاء، وحافظت على تجددتها وتطورها، وباتت تمثل اليوم الإطار المرجعي الذي تنتمي إليه الفلسفة الإسلامية المعاصرة في إيران.

المراجع

- (١) محمد أمين الأستريادي. الفوائد المدنية، تحقيق: الشيخ رحمة الله الرحمتي الأراكي، قم: مؤسسة النشر الإسلامي، ط ٢، ١٤٢٦هـ، ص ٤.
- (٢) المرجع السابق، ص ٥٤٧.
- (٣) المرجع السابق، ص ٢٩.
- (٤) المرجع السابق، ص ٢٩.
- (٥) المرجع السابق، ص ٣٥.
- (٦) المرجع السابق، ص ٢٩.
- (٧) المرجع السابق، ص ٣٠.
- (٨) المرجع السابق، ص ٣١.
- (٩) المرجع السابق، ص ٣٢-٣٤.
- (١٠) المرجع السابق، ص ١١.
- (١١) المرجع السابق، ص ٥٤٤.
- (١٢) المرجع السابق، ص ٥.
- (١٣) السبحاني، جعفر. موسوعة طبقات الفقهاء، بيروت: دار الأضواء، ٢٠٠١م، ج ١١، ص ٣١٥.
- (١٤) الأستريادي، الفوائد المدنية، مرجع سابق، ص ٥٩.
- (١٥) السبحاني، جعفر. تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره، بيروت: دار الأضواء، ١٩٩٩م، ص ٣٩١.
- (١٦) الأستريادي، الفوائد المدنية، مرجع سابق، ص ١٣.
- (١٧) المرجع السابق، ص ٥٩.
- (١٨) المرجع السابق، ص ٣٥.
- (١٩) المرجع السابق، ص ٣٥.
- (٢٠) السبحاني، تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره، مرجع سابق، ص ٣٨٦.
- (٢١) الأستريادي، الفوائد المدنية، مرجع سابق، ص ٣٥.
- (٢٢) المرجع السابق، ص ٣٥.
- (٢٣) المرجع السابق، ص ٣١.
- (٢٤) الفضلي، عبد الهادي. دروس في أصول فقه الإمامية، بيروت: مركز الغدير للدراسات والنشر، ٢٠٠٧م، ج ١، ص ٧٣.
- (٢٥) السبحاني، تاريخ الفقه الإسلامي وأدواره، مرجع سابق، ص ٣٨٥.
- (٢٦) الصدر، السيد محمد باقر. المعالم الجديدة للأصول، طهران: مركز الأبحاث والدراسات التخصصية للشهيد الصدر، ١٤٢١هـ، ص ٦٠.
- (٢٧) فرحان، عدنان. حركة الاجتهاد عند الشيعة الإمامية، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠٤م، ص ٣٨٥.